المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الخمسين

١ فبراير (شباط) سنة ١٩١٧ — الموافق ٩ ربيع الثاني سنة ١٣٣٥

الدكتور شبلي شميل

ترجمته

لا اصعب على المرء من قضاء واجب مؤلم . وايُّ واجب اشد ايلاماً من ان يكون ذاك صديق عشرتهُ وصادقتهُ من الصبا الى الشيخوخة وكنت تكلمهُ اليوم وفي الغد تدعى لتأبينهِ وترجمتهِ . وهذا شأن كاتب هذه السطور مع فقيد العلم والفضل الدكتور شميل مع مَنْ فقدناه فقد الغيث والعام ماحل . والعارفون ادواءنا الاجتماعية قليل عددهم والمجاهرون بما تحتاج اليهِ من العلاج اقل واندر . والعلماء الى النفية منهم الى الجهر اميل . ولكن ما الحيلة ولا مردَّ للقضاء

واذا المنية انشبت لم يشنها حرص الحريص وحيلة المحتال

من اتم نظرهُ في تاريخ العلوم والفنون في بلاد الشام رأى ان شمسها كانت تشرق مرة وتغرب اخرى في ازمنة متطاولة فقد كانت مدينة بيروت مقرَّ مدرسة الحقوق الكبرى في مملكة الروم كلها من القرن الثالث المسيحي الى القرن السادس لا تضارعها مدرسة رومية ولا مدرسة القسطنطينية . ولم تنتقل من بيروت الاَّ عند خرابها الزلازل سنة ٥٥١ لكنها لم تغادر بلاد الشام بل نقلت الى مدينة صيدا . وبثَّ اعوام كثيرة على الفتح الاسلامي — ق صارت دمشق دار الخلافة ومقر العلم والعلماء . وعلماؤها وعلماء سائر البلاد الشامية أكثر من ان يحصوا حتى في العلوم الطبيعيَّة نخص منهم بالذكر ابن ابي صادق الملقب بقرناط الثاني

ثم انتابت نوائب الدهر تلك البلاد كلها على اثر الحروب الصليبيَّة واجتياح المغول لما واطفأت منها نبراس العلوم او كادت . ودامت الحال كذلك الى اواسط القرن الماضي حينما جاءتها الرسالات الدينية من اوربا واميركا وانشأت فيها المدارس والمطابع . لكن همَّة منذو

الرسالات كانت مصروفة الى التعاليم الدينيَّة واللغوية والادبيَّة فلم يتَّجِ لاحد من ابناء سورية التوسُّع في العلوم الطبيعيَّة الاَّ اذا طلبها في روسية او جاء مدرسة الطب المصرية او مدرسة الاستانة

ولما حدثت الحروب الاهلية في بلاد الشام سنة ١٨٦٠ ولجأ اكثر المنكوبين الى مدينة بيروت اهتمَّ كرماء الاوربيين والاميركيين باغاثتهم فكثرت المدارس في مدينة بيروت وضواحيها وأُنشئت فيها جمعيَّة علمية ورأى المرسلون الاميركيون ان قد حان الزمان لانشاء مدرسة كلية لتعليم العلوم العالية والفنون الطبيَّة فاوفدوا احد خطبائهم وهو الدكتور دالبالي بلس الى اميركا لهذه الغاية فجمع الاموال من كرمائها وفتحت المدرسة الكلية ابوابها لطلبة العلم سنة ١٨٦٦ وكانت في بناء صغير متصل بالمدرسة الوطنية التي انشأها قبل ذلك الطبيب الذكر الخالد الاثر المعلم بطرس البستاني وكان كاتب هذه السطور من التلامذة الذين اموها في عامها الاول فشرعنا للحال في درس العلوم العالية من رياضية وطبيعيَّة مع العلوم اللغوية والادبية . وفي خريف العام التالي انشئ فيها فرع لتعليم العلوم الطبية جاءهُ جماعة من الطلبة بعضهم من التلامذة الذين كانوا يتلقون الدروس في المدرسة الكلية في عامها الاول والبعض الآخر من تلامذة المدارس الاخرى وبين هؤلاء شاب في نحو السابعة عشرة قصير القامة اسمر اللون سريع الخاطر تلوح عليهِ مخايل النجابة والذكاء مرتد بالثياب الافرنجية وكان لبسها نادراً بين الوطنيين في ذلك العهد وهو صاحب الترجمة . لكن اكثر هؤلاء التلامذة الذين جاؤوا من المدارس الاخرى كانوا خارجيين يحضرون الدروس ويمضون الى بيوتهم فلم نرَ ذلك الشاب تلك السنة الاَّ قليلاً

وفي السنة التالية انتقلت المدرسة الكلية الى بناء آخر استؤجر لها فيه دار فسيحة جُعلت للدرس العمومي وتحضير الدروس وكان لكل اثنين من الطلبة مكتب واحد مزدوج فكان نصيب صاحب الترجمة وفيليب دعَّاً متجاورين صفتين صوالتين تذاكر فيها كان من درسنا مشتركاً كعلم النبات والكيمياء والفسيولوجيا وفيها نميل اليهِ بالطبع كالشعر والانشاء . ومن غريب الاتفاق اننا ولدنا في قريتين متجاورتين وكان من قريتهِ الشيخ ناصيف اليازجي استاذنا واماه العربية ووسطة عقد الشعراء في بلاد الشام في ذلك العهد ومن قريتنا احمد فارس الشدياق صاحب الجوائب وهو من اكبر ائمة اللغة والشعر والانشاء . وكانَ كلاً منا كان يودُّ ان يحتذي ابن بلدهِ فكنا نتنافس في اقتفاء اثريهما

والدكتور شميل من بيت علم وفضل فان اخاهُ الاكبر المرحوم مخيم شميل كان استاذاً

في مدرسة الروم الكبرى في سوق الغرب لدى اول انشائها وكان لهُ اتصال بالمرسلين الاميركيين في عهد المرحوم عالي سمث وقد وقفنا لهُ على مباحث جليلة فلسفية وطبيعية . واخاهُ المرحوم امين شميل صاحب كتاب المبتكر الادبي الفلسفي ومجلة الحقوق القضائية كان من العلماء المتجرين . وابوهم من فضلاء لبنان ووجهائهِ ومن ادباء عصرهِ . فشاب يولد من والد مثل هذا الوالد يحيط بهِ مثل هذين الاخوين لا غرو ان ينشأ بعقل علمي فلسفي جامع بين ادب النفس والانصراف الى العلوم الادبية والطبيعية

واتممنا دروسنا العلمية في صيف سنة ١٨٧٠ وخرجنا من المدرسة واتمَّ هو دروسهُ الطبية في صيف سنة ١٨٧١ وخرج منها . ثم عدنا نحن الى التدريس في المدرسة الكلية سنة ١٨٧٣ وانشأنا (كاتب هذه السطور وشريكهُ الدكتور فارس نمر) المقتطف بعد ذلك واتفق اننا نشرنا في مقتطف اغسطس سنة ١٨٧٨ تبذة صغيرة اشرنا فيها الى تجارب الاستاذ تندل التي جاءت نتيجتها نافية للتولُّد الذاتي الذي كان يقول بهِ جمهور من العلماء اي لتولُّد الاحياء في مادة ليس فيها بزورها . وكان الدكتور شميل قد انتقل الى القطر المصري ورحل الى اوربا واطَّلع على المباحث البيولوجية عند اربابها واقتنع بما وقف عليهِ من الادلة لصحة مذهب النشوء وتولُّد الانواع بعضها من بعض والتولد الذاتي ايضاً فكتب الينا معترضاً ودارت المناقشة بيننا وبينهُ

وكان العلماء الباحثون في هذا الموضوع فريقين فريقاً يقول ان الحي لا يتولد الاَّ من حي مثلهِ وفريقاً يقول بالتولُّد الذاتي بناءً على ان الحياة حالة من حالات القوى المادية كالحرارة والكهربائية فتظهر متى توفرت لها الاحوال اللازمة لظهورها . ويؤيدون قولهم بظهور المكروبات في بعض السوائل بعد ان تُسخَّن الى درجة عالية من الحرارة تميت بزورها منها ان كانت موجودة فيها . ولم يزالوا فريقين حتى الآن وقد مات الدكتور باستيان في العام الماضي وهو يؤكد انهُ رأى اجساماً حيَّة تولدت من مواد غير حية وصوَّر هذه الاجسام وقلنا صورها عنهُ في المقتطف منذ سنة من الزمان . وجمهور العلماء لا يقول الآن باستحالة ذلك بل يقول ان التجارب التي جرَّبها الدكتور باستيان لا تدلُّ دلالة قاطعة على ان جراثيم تلك الاحياء لم تكن موجودة حيَّة في السوائل التي ظهرت الاحياء فيها . ولقد كنا مصيبين في متابعتنا الاستاذ تندل ووثوقنا بصحة تجاربهِ وصحة النتيجة التي استنتجها منها . وكان الدكتور شميل مصيباً ايضاً في متابعتهِ القائلين بعدم استحالة التولُّد الذاتي بناءً على ان الحياة من القوى المودعة في المادة ولو كانت الاحوال الحاضرة لا تساعد على ظهورها في المادة مباشرة

واساس الفرق بيننا وبينهُ في الامور العلمية والاجتماعية اننا نحن نميل الى الحذر ونرى ان يُذكر كل امر بما يستحقهُ من الاحتمال او الترجيح او التحقيق اثباتاً كان او نفياً مدفوعين الى ذلك بما اثرتهُ فينا العلوم الرياضية التي تعلَّمناها وعلَّمناها، ولما يستطيع هذا التدقيق من لم يبحث في الموضوع من كل وجوههِ ويعرف كل ملابساتهِ واوجه القوة والضعف فيهِ. واما الدكتور شميل فلم يدرس العلوم الرياضية وكان حاد الذهن سريع التصوُّر فيبادر الى المجاهرة بما يعتقدهُ صواباً ولو خالف المألوف ولم تقم ادلة قاطعة على تأييدهِ. وقد صرَّح بذلك منذ عهد غير بعيد في مقالة نشرها في جريدة المؤيد حيث قال « اما انا فأقفي اذا كان ذلك يُعدُّ آفة انهُ متى بدت لي حقيقة تستهويني حتى لا اعود احفظ نفسي عن ابدائها »

الاَّ ان هذه الحماسة لا يقدم عليها المرء في عملهِ الخاص الذي يبحثهُ من كل وجوههِ ويعرف كل دخائلهِ وتشعُّب الآراء فيهِ بل مَن يلمُّ بالموضوع الماماً او يكون من العاملين فيهِ فلم يكن الدكتور شميل كذلك في علم الطب بل كان يجري في معالجة مرضاهُ ووصف الادوية لهم حسب القواعد المقررة ولا يأخذ بالمحتملات ولا تستهويهِ المكتشفات الجديدة فلم يبادر مثلاً الى استعمال المعالجة بماء البحر ولا بالسلفرسان ولا بالانزيم اوزون. وهذا شأن كل متعمق في علم من العلوم او موضوع من المواضيع. ألا ترى ان داروين نفسهُ صاحب المذهب الداروني مضت عليهِ سنون كثيرة وهو يبحث ويحقق ويكاتب ويستشير قبل ان جاهر بمذهبهِ لانهُ كان يرى اماكن الضعف فيهِ ولم يبادر الى نشرهِ الاَّ اجابة لالحاح اصدقائهِ الذين رأوا ان وليس كاد يسبقهُ الى نشر مذهب مثلهِ. ولقد كان داروين في تأنيهِ احكم منهُ في نشر مذهبهِ حينئذٍ لان كثيراً من مبادئهِ تُنقض الآن وأُبدل بغيرهِ. ومثل ذلك نرى ان من يسيح اسبوعاً في مدينة لم يعرفها من قبل قد يكتب عنها مجلداً كبيراً يصف فيهِ مشاهدها ومسالكها واخلاق اهلها واما ابن تلك المدينة الذي ولد وربي فيها فيتعذر عليهِ ان يكتب عنها عشر صفحات لان الاول يأخذ بالظواهر والثاني ينظر الى البواطن والدقائق ويجد لديهِ اموراً كثيرة يتعذر عليهِ استقصاؤها وتعليلها

الاَّ ان الدكتور شميل كان نابغة في التعليل المعيَّن في اكتشاف الحقائق ومن ثمَّ كان من مشاهير الاطباء في التشخيص العلمي كأنما يوحى اليهِ وبلغت منهُ الفراسة ان علَّل حوادث كثيرة بالاستنباط الذاتي قبل ان شاع هذا التعليل في اوربا

ولمعيَّتهُ في اكتشاف الحقائق جعلتهُ يختار موضوعاً خطبتهِ الانتهائية في المدرسة الكلية سنة ١٨٧١ « اختلاف الحيوان والانسان بالنظر الى الاقليم والغذاء والتربية »

جاء فيها بكثير مما يؤيد مذهب داروين على غير قصد منهُ . ولقد خسرت المدرسة الكلية خسارة كبيرة لانها لم تنتدبهُ للتدريس فيها . ونرجح انها لو فعلت ذلك لانقطع للبحث العلمي واكتشف في علم الطب او العلوم الطبيعية المتصلة به اكتشافات كبيرة توسع نطاق العلم وترغب الطلبة الشرقيين في اقتفاء خطواته . ولم ينقطع للبحث العلمي في بيته لانهُ لا ينتظر من طبيب ليس لديهِ شيء من وسائل البحث ان يتولى البحث العلمي بنفسهِ . وقد ادرك اهالي اوربا واميركا ذلك فقالوا ما يطلب من اساتذة مدارسهم لكي يتفرغوا للبحث والتنقيب . ولم يكتفوا بذلك بل انشأوا معاهد للبحث العلمي خاصة واستدعوا اليها كبار العلماء والاطباء الذين يميلون الى هذا البحث ليتفرّغ كلٌّ منهم للبحث في الموضوع الذي يميل اليهِ وقطعوا لهم الرواتب الكافية لكي يستغنوا عن التطبيب والتعليم ايضاً

وقد خُص الدكتور شميل بذاكرة ماضية وقوة استحضار فائقة فلم يكن يتعذر ان يقول لك انني كتبت منذ ثلاثين سنة مقالة قلت فيها كذا وكذا ويسرد لك صفحة او اكثر غيباً . او نظمت قصيدة قلت فيها الابيات التالية ويسرد لك عشرين بيتاً او اكثر حتى انهُ كان يحفظ بعض ما كتبناهُ ونحن لا نتذكر حرفاً منهُ

وكان انيس المحضر حسن المحاضرة فكه الحديث فات السبعين واشتد عليهِ الربو ولكنهُ بقي بشوشاً طلق المحيا يعشقهُ خلانهُ واصدقاؤهُ وكلُّ الذين عاشروهُ لما يرونهُ فيهِ من حسن الطوية واخلاص الحب والانصاف والانتصاف ولاسيما لشجاعتهِ الادبية المفرطة فلم يكن يخشى ان يقول للظالم يا ظالم ولو ملكاً . ومع عزتهِ على الظالمين المتغطرسين كان من اودع الناس مع الضعفاء واليائسين

نقرأ كتاباتهِ فنجدهُ ماديًّا من غلاة الماديين وهو في الحقيقة من غلاة الروحيين حتى كاد يعتقد بالسعد والنحس وحاول مرةً ان يجد دافوناً للصدفة . ولبعده عن الماديات وكرههِ المفرط لم يعرف ان يستفيد من علمهِ فائدة مادية فلو جمع الى مهارتهِ في علم الطب شيئاً من المهارة في اكتساب المال عن التطبيب لعاش في سعة وتولى عن ثروة طائلة ولكنهُ كان يحرص على جمع ما يحتاجهُ قليلهُ اضعاف اضعاف ما يحرص على مالهِ حتى لقد حفظ عدداً من جريدة فرنسوية كان يشتريها منذ اكثر من اربعين سنة وعلى ذكر هذه الجريدة نقول انهُ كان من اكتساب معدودين في اللغة الفرنسوية كما كان في العربية . وكان واسع الرواية قوي الحجة ولاسيما اذا كان بين قوم يدركون معانيهُ وكان الموضوع يتطلّب الحماسة فانهُ كان يتدفق كالسيل حتى يدهش منهُ سامعوهُ ولو كانوا من كبار الخطباء

وانتشرت كتاباتهُ في الجرائد والمجلات في كل البلدان التي تقرأ فيها العربية أو الفرنسوية ورأي القراء فيها حكماً رائعة وآراء صائبة فاكبروا شأنهُ . ولو تمكن من زيارة السوريين في مهاجرهم في اميركا الشمالية والجنوبية وجنوب افريقية واستراليا وزيلندا الجديدة واليابان لاحتفلوا بهِ في كل مكان كما كبر فيلسوف نجلهُ البلاد الشرقية

وسيأتي الكلام على علومهِ ومؤلفاتهِ في الجزء التالي

واعتلت صحتهُ منذ بضع سنوات فكانت تصيبهُ نوبات من الربو تكاد تقطع انفاسهُ ولا تلبث ان تزول عنهُ حتى يعود الى نشاطهِ الاول و بشاشتهِ الاولى . وقد صرّح لنا مراراً انهُ سيقضي عليهِ في نوبة مثل هذه فكان كما قال ووافتهُ منيتهُ فجر الاثنين في رأس هذا العام بلا الم ولا تعب . وما شاع نعيهُ في العاصمة حتى وجم الناس من هول المصاب لعظم الخسارة فيهِ واحتفلوا بتشييع جنازتهِ في اليوم التالي احتفالاً مهيباً سار فيهِ جمهور كبير من محبيهِ ومريديهِ من وجهاء العاصمة والاقاليم وكبار رجال الحكومة وصُلي عليهِ في كتدرائية الروم الكاثوليك ثم وقف الشاعر الشهير خليل افندي مطران ورثاهُ بابيات عبّر بها عن احساس كل عارف بفضلهِ قال فيها

لانتَ صلاب المزائم ... وانتبتَ عقد العظائم
قضى حبيب المعالي ... قضى عدوّ المظالم
قضى فتى الحلم والبأس والعلي والمكارم
عصر طواهُ وشيكاً ... هذا القضاء الوامم
وامة من سجايا ... بادت كأحلام حالم
في كل مجمع فضل ... فاتت عليهِ المآتم
ماذا دهى العلم فيهِ ... وكان اعمل عالم
المّ بالطب ريب ... كأنهُ فأس هادم
رمح في كل نفس ... من ساجي غير نادم
برغم كل شجاع ... يا شبل انك راغم
فوجئت حتفاً وهذا ... اولى بعزّ الضياغم
فاليوم تسكن كرهاً ... والدهر حولك قائم
قيام بحر تلاقى ... حبابهُ والغمائم
غريقهُ مطمئن ... ووجههُ متلاطم

ما كان منك بعهدٍ هذا الجمود الدائم
بعد الجهاد تواليه دائباً غير سائم
وبعد غزّ مساعٍ فيحمد غير ذمائم
يا ساكن الرمس ضيقاً وكان وسع المعالم
امل قلبك فيهِ يقظان والجفن نائم
سرّ اسائل عنهُ يوم النوى كل حازم
فما يجير جواباً يزيل حيرة واجم
المستريح وقد كنت ضامناً للغمارم
قد بت اتعب مابات دون حق مخاصم
ورحت ايأس ماراح ذائد للمآثم
في قيد خزّ رقيقٍ وقد تفك الادادم
تركت دنياك ناراً شبّت على يد غاشم
اضحت مجال سنايا بين الجيوش الخضارم
وكنت سلم التآخي فيها وحرب المحاتم
تستنهض العدل والعقل والشعوب الجوائم
على محلّ الخاصي ومستبيح المحارم
تشكو امى انتهاب يزعمن بعض الغنائم
تلوم كل مليمٍ اذ ليس في الخلق لائم
وما برحت وفيّاً لكل خلّ مخالم
وما برحت معيناً اخاك والوقت عارم
ان اقبل الدهر يوماً قاسمت كل مقاسم
لا سقياً لك الاّ ادنى نصيب المساهم
وان منيت بعدمٍ فما مرجّيك عادم
بيت الشفاء مزار يؤمّهُ كل راثم
ما ينثني عنهُ ماضٍ حتى يوافيهِ قادم
للداء فيهِ دواء وللجراح مراهم
لا حسبة الله لكن جود ورحمة راحم

من اريجيّ عظيم ما كان بالمتعاظم
يشفي الجسوم ويلقي عن العقول الشكائم
يبغي هدى كل قوم الى الصلاح الملائم
ولا يضنّ بنصح ثبت ورأي حاسم
كأنما سيف يديه يرق على الطرس راقم
آيات نثر مبين تجلى واليات ناظم
مرام كل حكيم ومنتهى كل حاكم
تغشى الحقائق فيها حينًا مخيلات واهم
لله انت وهمّ مبرّح متقادم
من اجل قولك كم بتّ في ليالٍ جوائم
ما انت بدرج بث من كربك المتفاقم
وما تفي في جهادٍ لهُ الرجاء بملازم
تلك البلاد الغوالي على الحماة السلادم
تزداد لفحًا عليها ما ازداد فيها الجرائم
تأبى لها الضيم ما في يديك والدهر ضائم
لولاهُ والجهلُ أعمى لم يبقَ في الارض ظالم

***

يا من غشى بثناه ملءُ النفوس الكرائم
قد اوطنت في خلودٍ ذكراك بين العوالم
جرت بها فلك نور على الدموع السواجم
الى شآميّ مجد منوّرات بواسم
فم يزن يوم دفنك ترحيل بين المواسم
سقت ثراك غيوث مخضلة بالمراحم

وتلاه كاتب هذه السطور فبيّنهُ ذاكرًا عملهُ وفضلهُ وقال انهُ كان يبحث عن الحقيقة وقد صار الآن حيث يعلم ما هي علم اليقين وان نفسهُ سيبقى ما بقيت اللغتان العربية والفرنسوية اللتان نشرت كتاباتهُ بهما. ثم تقدم رصيفهُ الدكتور امين ابو خاطر فابنهُ بعبارات بليغة كان لها اعظم وقع في النفوس